ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 11 مارس 2017

إذا كان الأكويني فيلسوفا، فكذلك هم المسلمون المتكلمون

بيتر أدامسون

ترجمة: محمد معاذ شهبان

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017

إذا كان الأكويني فيلسوفا، فكذلك هم المسلمون المتكلمون[1]

بيتر أدامسون[2]

ترجمة: **محمد معاذ شهبان**[3]

---

[1] If Aquinas is a philosopher then so are the Islamic theologians - Peter Adamson | Aeon Ideas

[2] أستاذ الفلسفة بجامعة لودفيغ ماكسيميليان في ميونخ. له عدة إصدارات، من بينها «أفلوطين العربي» (2002) ومفكرو القرون الوسطى العظماء: الكندي (2007) والفلسفة في العالم الإسلامي (2016)، وهو مقدم المدونة الصوتية «تاريخ الفلسفة».

[3] مترجم وباحث من المغرب

قد أكون مجرد متفائل، إلا أنني أعتقد بأن الناس يعترفون عموما اليوم بأهمية الفلسفة وأصالتها في العالم الإسلامي. هل سيذكر أي عالم الآن في إصداراتهم، مثل ما أقدم عليه بيرتراند روسيل في إصداره تاريخ الفلسفة الغربية (الذي كتبه سنة 1945) بأن "الفلسفة العربية ليست ذات أهمية مثل الفكر الأصلي، وأن الشخصيات مثل ابن سينا وابن رشد عبارة عن معلقين بالأساس"؟ لا آمل ذلك، لكن حتى إذا كانت الأمور جلية لنا أكثر الآن، فلا زلنا نعاني من ضبابية في الصورة. فالمفكرون الذين يؤخذون على محمل الجد كـ"فلاسفة" هم الكتاب الذين همشهم روسيل كونهم معلقين فحسب، من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد. وعلى الرغم من أنهم كانوا بعيدين عن كل ما هو مزيف، فقد كانوا متحمسين فعلا لأرسطو وكتاب يونانيين آخرين. ومع ذلك، فلم يكن هؤلاء وحدهم المثقفون والعقلانيون في وقتهم ولم تمت العقلانية ولا الفكر الفلسفي مع وفاة ابن رشد في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، كما لا زال يعتقد كثيرون؛ فعبر التاريخ الإسلامي لم يكن عدد كبير من الأعلام المهتمين، والذين لهم صلة بتأريخ الفلسفة من أتباع أرسطو لكنهم كانوا ممارسين لعلم الكلام، والذي يُترجم في الغالب إلى مصطلح "علم اللاهوت".

يحيل المعنى الحرفي لمصطلح الكلام على "الكلمة"، وهو في هذا السياق اختصار للعبارة العربية "علم الكلام". كما أنه يتناقض غالبا مع مصطلح الفلسفة، والذي يبدو جليا بأنه استُقدم إلى العربية ككلمة مستعارة من مصطلح فيلوسوفيا اليوناني. عندما يطرح علماء اليوم المعاصرون هذا التناقض، حينما يفترضون بأن **الكلام** كان غير فلسفي أو حتى مضاد للفلسفة فهم يتبوؤون الزعامة من تقليد القرون الوسطى ذاته. لقد اعتبر اثنان ممن سموا أنفسهم بالفلاسفة، الفارابي وابن رشد، أن المتكلمين قد انخرطوا في حجج جدلية صرفة، بينما تمنح الفلسفة دلائل برهانية. فعالم اللاهوت لا يؤسس الحجج على المبادئ الأولى، لكنه يدافع فقط عن تأويله الشخصي للكتاب المقدس مقابل التأويلات المناوئة. من ناحيته، قلل ابن رشد من قيمة النتائج، حيث ادعى بأن من شأنها أن تقود إلى شقاق عنيف، فبالنسبة إليه، وحده الفيلسوف باستطاعته أن يعطي قراءة موثوقة للقرآن، كونه يعرف ما هو صحيح على أرضيات مستقلة؛ أي على أسس العلم الأرسطووي.

لكن هل علينا أن نقبل هذا التناقض الحاد؟ فهؤلاء الأرسطويون يتحدثون كما لو أن **الكلام** لا يعتمد على المنطق بالشكل الكافي. لكن أغلب المعاصرين يقاربونها كونها جدلية بالضبط، لأنها كانت عقلانية بشكل كبير. لقد انطلق المتكلمون في الغالب من المعنى الظاهري للقرآن على أسس عقلانية: حيث يبدو الوحي وكأنه يتحدث عن الله كما لو أن له جسما، إلا أنه بإمكاننا أن نحذف هذا من خلال إعطاء حجج مقابلة لتجسيد الله. كما أن المتكلمين دخلوا في خلافات مفصلة حول مثل هذه المواضيع الفلسفية المركزية من قبيل الإرادة الحرة والمذهب الذري ومصادر المسؤولية الأخلاقية، كما ناقشوا هذه الشكليات كونها ملازمة للخصائص في المواد أو حالة الأشياء غير- الموجودة. إذا كان للتاريخ مجرى مغاير، ولم تكن

هناك أية كتابة أرسطووية متصلبة بالعربية، فلا شك لدي أن مؤرخي الفلسفة كانوا ليعتبروا مردود المتكلمين تقليدا "فلسفيا" في العالم الإسلامي.

كان هذا ليجعل من مقاربتنا للتاريخ الثقافي الإسلامي شبيهة بمعالجتنا للفكر المسيحي في العصر الوسيط. يبقى أن طبقات فلسفة العصور الوسيطة مكرسة في معظمها للأعلام الذين اعتبروا أنفسهم "لاهوتيين"، مثل أنسلم والأكويني ودانز سكوطس ووليام الأوكامي. وبالطبع، فهناك العديد ممن لا تروق لهم فلسفة العصر الوسيط بسبب سياقها الديني بالأساس. لكن رأيي أن الفلسفة هي حيث تجدها، وأنه من ضيق الأفق أن نتجاهل الجدال الفلسفي، والذي أثاره المفكرون، لأن لديهم أجندة دينية ببساطة، سواء كانت أجندة للمسيحية (مثلما عليه الأمر مع الأكويني) أو اليهودية (مثلما عليه الأمر مع موسى بن ميمون) أو الهندوسية (مثلما عليه الأمر مع نظرية المعرفة نيايا أو فلسفة العقل فيدانتا) أو الإسلام.

إن رفض تقدير الاهتمام الفلسفي بالكلام وخيمٌ بالدرجة الأولى، حينما يتعلق الأمر بالفترة التي أعقبت الشخصية المحورية للفلسفة في العالم الإسلامي، ابن سينا (الذي توفي عام 1037). فقد كان أثره كبيرا ومنتشرا، ونجد "المتكلمين" من أمثال الغزالي (الذي توفي عام 1111) وفخر الدين الرازي (الذي توفي عام 1210) منشغلين بتحليل دقيق لحجج ابن سينا، متقبلين لبعض الجوانب من نظام ابن سينا وراصدين لقصور في أخرى. وقد اشتهر الغزالي بانتقاده لميتافيزيقيات ابن سينا في تهافت الفلاسفة، لكنه انهال بالسخرية على كل من أنكر جدوى منطق الفلاسفة. أما بالنسبة إلى الرازي، فإن خلاصاته في علم الكلام الضخمة مطابقة لكتابات الأكويني وسكوطس في النصرانية اللاتينية الحافلة بالحجج الدراسية والمنظمة من حيث العناصر الفلسفية، مثل التصنيفات الأرسطووية. إن الأسطورة التي تقول إن الفلسفة ماتت في العالم الإسلامي في زمن ابن رشد (الذي توفي عام 1198) هي في جزء منها نتيجة لافتراض أن مثل هذه النصوص خرجت عن اختصاص تاريخ الفلسفة، رغم أنها طافحة بالجدال الفلسفي المعقد.

من ضمن أشياء أخرى، لا ننكر أن نصوصا أخرى من **الكلام** ذات اهتمام محدود للقارئ ذي الفكر الفلسفي أو أن المتكلمين تصرفوا في الغالب على أساس التفسير الإنجيلي عوض (أو بالإضافة إلى) الجدل العقلاني الخالص. وليس هذا هو السبب الوحيد الذي يجعل نصوص الكلام محبطة في الكثير من الأحيان للفيلسوف. فقد صدق الفارابي وابن رشد حينما قالا إن هناك منحى "لهجيا" لدى معاصريهم اللاهوتيين. وقد لا تدرس المقدمات المنطقية، لأن خصما معينا ملزم بقبولها، كما كان هناك اتجاه – في بداية **علم الكلام** – يقضي بالإجابة عن الأسئلة بتركيبة لفظية تحوز قبول كل الأطراف عوض الغوص عميقا للحصول عن إجابة مقنعة. لكن ذلك الاتجاه تم تقليصه إلى حد ما في أدب **الكلام** لاحقا. إن انطباعي في حقيقة الأمر –والذي أقدمه بشكل مؤقت، بالنظر إلى القدر الكبير من أدب **الكلام** الذي لم يتم تعديله ولا دراسته حتى

الآن- هو أن الكلام يصبح بشكل ملحوظ "فلسفيا" أكثر مع تطور التقليد. ففي فترة ما بعد ابن سينا أصبحت الوضعية مشابهة بشكل كبير لما عهدناه في فرنسا في أواخر القرن الثالث عشر ميلادي: حيث كان أهم الفلاسفة وأكثرهم تطورا هم اللاهوتيون.

وقد يبدو جشعا مني أن أطلب من فئة عريضة من القراء أن تقدر **علم الكلام**، في وقت لازالت فيه أعمال من وصفوا أنفسهم بـ "الفلاسفة" في العالم الإسلامي تُدرس من قبل غير المختصين. لكن الأمر مغاير عندما يطلب من الطلبة الجامعيين أن يطالعوا أعمال ابن سينا وابن رشد بشكل روتيني دون الالتفات لمعاصريهم "اللاهوتيين" وورثتهم. لكن حتى وإن بقيت النصوص ذات الصلة غير مدروسة بصورة عامة من الجدير بالذكر أن العقلانية في الإسلام لم تضمحل مع وفاة ابن رشد، وأن أنصار الفلسفة في العالم الإسلامي، مثل الفارابي وابن رشد وابن سينا لم يكن لهم أي احتكار للفكر الفلسفي هناك.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017